

صفات النساء النفسية

بين سذاجة الطفولة وعنفية الفكر

للدكتور جميل صليبا

كثيراً ما بحث الأدباء في النساء وصفاتهم وما يحمدهن ويذم من أخلاقهن، فوصفوا المرأة الصالحة والزوجة الموافقة، كما أفاضوا في ذكر صفة المرأة السوء وشرها. فأحسن النساء عندهم من كانت شريفة في قومها، كاملة في عقلها، فصيحة اللسان صادقة محبة لزوجها، حافظة لسرّها؛ وشرفهن من كان كلامها وعيداً وصوتها شديداً، تدفن الحسنات وتفضي السيئات، صخوب غصوب ضيقة الباع. إلا أن هذه الصفات التي ذكروها لم تن على استقرار علمي ولا تحليل نفسي. فما هي صفات النساء وما هي أنواعهن عند العلماء؟

بينما كنت ذات مرة ألقى درساً في علم النفس على تلاميذ لم يتجاوزوا الثامنة عشرة من سنهم قال لي أحدهم بعد أن ذكرت صفات الحوادث النفسية: هل تنطبق هذه الصفات على المرأة، أم في الأرواح تذكر وتأنث؟

إن هذا السؤال — بالرغم من سذاجته — يتضمن شبهة فلسفية عميقة. فهل تشعر المرأة كما يشعر الرجل؟ وهل تفكر كما يفكر أو تريد كما يريد؟ وهل تختلف مشاعرها عن مشاعر الرجل كما يختلف جسمها عن جسمه؟

قال بعضهم: إن الفرق بين المرأة والرجل في الحس والفكر والإرادة عظيم جداً، وإن المرأة كانت في الجماعات الابتدائية للرجل لافرق بينها وبين العبد، حتى لقد ذكر لكوفه Legouvé أن أحد المجامع المقدسة في القرون الوسطى تناقش في هذا السؤال: هل للمرأة نفس أم ينفرد الرجل وحده بهذه الصفة الإلهية؟ وقد ساقهم إلى هذه المناقشة ما جاء في التوراة عن خلق المرأة من ضلع من أضلاع الرجل، وقول آدم: هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي، وعدم قوله إنها ذات نفس شبيهة بنفسه.

وزعم آخرون أنه لا فرق بين الرجل والمرأة في الحس والعقل والإرادة، وأن الفرق بين الرجال أنفسهم أكثر من الفرق بينهم وبين النساء. فما قاله أفلاطون: لا فرق بين الرجال والنساء. يجب أن يكون عدد النساء في جيش الجمهورية مساوياً لعدد الرجال.

ويجب عليهم أن يتعلمن استعمال السلاح وركوب الخيل. وينبغي لهن أن يزرعن ثيابهن لممارسة الرياضة البدنية وألا ينجلن من ذلك كله لأن أحسن نوب يصون المرأة هو نوب الفضيلة. ومما قاله كوندورسه: يجب أن يكون التعليم واحداً بالنسبة إلى الجنسين لأن المرأة مساوية للرجل. ومما قالته مدام (نكردوسوسور): إن البنات لا يختلفن عن الصبيان أبداً قبل العاشرة من السن.

فالباحث عن حقيقة المرأة إما أن يكون مثل بوسويه الهازي* بريئة النساء وزهوهم فيقول لهن: لا تنسبن يا سيداتي أنكن خلقن من ضلع زائد من أضلاع آدم؛ وإما أن يكون مثل أفلاطون الخيالي فيتصور مدينة فاضلة قائمة على سواعد الرجال والنساء معاً. وهذه المباحث الأولية لا تكشف الغطاء عن حقيقة المرأة، بل هي على مثال ما ذكره سائر الأدباء أقوال خطائية لا توضح الأمر بل تزيد ظلاماً، حتى لقد قال (ريدرو) في ذلك: «إذا كتبت عن المرأة فأغمس ريشتك في قوس قزح ثم رش على أوراقك غبار أجنحة الفراشة، لأن المرأة هي موجود إلهي»

فلنرجع إلى علم النفس ولنسأل ما هي حقيقة المرأة ولندرس أحوالها النفسية على ضوء العلم الحديث

إن تحليل صفات النساء يكشف لنا عن أنواع مختلفة، ويمكننا إرجاع هذه الأنواع إلى أربعة:

- ١ — المرأة الطفل
- ٢ — المرأة الحساسة
- ٣ — المرأة الحساسة الذكية
- ٤ — المرأة المفكرة

ولنبحث في كل من هذه الأنواع على حدة:

١ — المرأة الطفل: إن هذا النوع من النساء مشتت الفكر والقلب معاً؛ فلا هو منظم الحكم، ولا هو ثابت الحس، بل يتبدل من صورة إلى أخرى بحسب الأهواء والمواقف. وقد وصفه (ديكنس) في روايته دوريت الصغيرة (La petite Dorit). وبين العلماء أن له نوعين: المرضي والطبيعي. فالمرضى يعرف بشدة قبوله للتلقين، والطبيعي يشتمل على النساء الخفيفات العقل الكثيرات الزهوالواتى ينتقلن كالطير من فنن إلى آخر؛ أو يشتمل على النساء الواسعات الخيال الكثيرات الفلق والمظلمات الأمل؛ فإذا تكلمن مزجن الحقيقة بالخيال وأسرعن في التعبير عن أفكارهن أو تقدمت الألفاظ عندهن على الفكر. وقد يملن إلى الاطلاع ويرغبن في الكشف عن خوافي الأمور، إلا أن ميلهن هذا بعيد جداً عن

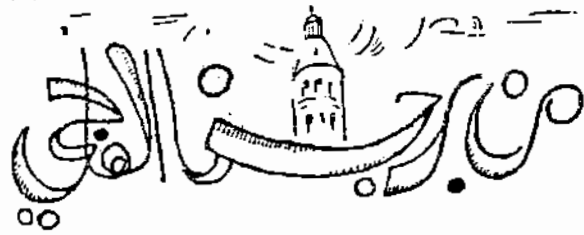
٣ - المرأة الحساسة الزكية : وقد تكون العاطفة مصحوبة بقوة من الذكاء خفية لا تخلو من الدقة وحس الحياة ، فترتبط المرأة عواطفها بأفكارها وتريد أن تنقلب بها على مشاكل الحياة . إن هذا النوع من النساء قوى الملاحظة والانتباه والذاكرة ، واسع الخيال شديد الحس ، إلا أن قوة الحكم عنده مشوبة بدخان العاطفة وسائق الغرزة . لذلك تجده قوى الشعور بالمنفعة كثير الميل إلى العمل . كالزوجة التي تشعر بالرابط الاجتماعي وتقدره حق قدره وتبدل بعواطفها المعنوية بالفكرة الاجتماعية أو الخلقية أو الدينية ؛ وكالوالدة التي تدرك نظام الحياة فتصور مثلاً أعلى له ثم تهتم أولادها للفوز في هذا النظام الجديد ؛ فهي تشرع بمشاكل الحياة وتريد أن تنقلب عليها بقوة الذكاء والإرادة . فكم شاب لم يتطلع إلى العالی إلا بتأثير والدته ! وكم رجل لم يقدم على المناصرات السياسية أو المالية إلا بدافع من زوجته ! وكثيراً ما تكون المرأة هي القوة المحركة والدماغ المفكر والعقل المدبر ، ويكون الرجل هو الآلة المتحركة والواسطة المبلغة .

٤ - المرأة المفكرة : إن هذا النوع الأخير أقرب إلى الاهتمام بالباحث العلمية من الأنواع السابقة ، فهو يحب للاطلاع ميال إلى المعرفة ؛ إلا أنه كثيراً ما يضطرب أمام إشراف الفكر ويعجز جسمه اللطيف عن تحمل أعباء البحث . والسبب في ذلك أن النساء عشن حقاً طويلاً تحت وصاية الرجال بميدات عن الحرية والحياة ، فلا غرو إذا ترددن في البحث وشعرن بالقنق في قضاء الفكر . وبالرغم من ذلك فإن البنات أكثر انسياحاً للنظام من الصبيان . وقلما تجد فتاة تفضل الكسل على الاجتهاد ، بل إن أكثر البنات يصغين إلى أساتذتهن ويكتبن الأمالي ، ويحفظن دروسهن ؛ إلا أنهن لا يزلن حتى الآن أقل جرأة فكرية من الصبيان ، لأنهن يعتمدن على الذكاء أكثر مما يعتمدن على قوة الحكم .

وقد تبين لعلماء العصر أن استعداد المرأة للرياضيات قوى جداً وأن في وسعها أن تتعود التفكير المجرد ، إلا أنها لا تزال قليلة الثقة بنفسها فلا تبحث إلا في الأشياء العملية النافعة أو في الأمور المحددة . ومع أن مدام بيار كوري قد توصلت في العلوم التجريبية إلى درجة عالية فإن تلميذات فرع العلوم في الجامعات أقل ثقة بنفسهن من التلاميذ ، لأن التجربة العلمية يحتاج إلى جرأة وتنظيم ، وهذان الأمران لا يزالان حتى الآن بعيدين عن المرأة .

حبة العلم ، فهن يرغبن في المعرفة لا للمعرفة نفسها بل لحاجة في نفوسهن تدفعهن إلى الحديث . وإذا رغبين في شيء مجرداً عن المنفعة المباشرة رضين بالقليل منه واكتفين باليسير . قلت لطفل مرة : إذا أعطيتك ثلاث برتقالات وأخذت منها واحدة فكم يبقى معك منها ؟ فقال علي الفور : كيف تقول لي إنك أعطيتني ثلاث برتقالات وأنت حتى الآن لم تعطني شيئاً ؟ فالمرأة الطفل لا تختلف عن هذا الطفل في طلب العلم . إنها تفضل المحسوس على المجرد ، والقريب النفع على البعيد القصد . فهي إذن مثل هذا الطفل الذي لا يعرف الحساب إلا إذا تذوق حلالة البرتقالة

٢ - المرأة الحساسة : يختلف هذا النوع عن الأول بشدة العاطفة وعمق الشعور وتقلب القلب على العقل . إن المرأة الحساسة لا تقيس الأشياء إلا بقياس العاطفة ولا تزنها إلا بميزان الهوى . فكل ما وافق هوى من نفسها صحيح ، وكل ما أعرضت عنه فاسد . لقد جاء في بعض روايات (جورج ساند) شيء من صفات هذه المرأة . إنها تنسى هواها القديم عند وقوعها في الهوى الجديد ، ولا تهتم بوقوعها في التناقض وانتقالها من ضد إلى آخر . نعم إن الرجل نفسه خاضع لمنطق العواطف ولكنه يحاول في كل حال من أحواله أن يبرر عواطفه ويجعل هواه معقولاً . مثال ذلك : أن (ألسست) Alceste يقول عن نفسه إنه لا يحب سيليمين Célimène إلا ليرجع إليها الفضيلة المفقودة ، فهو إذن يجيد لجواه سيباً معقولاً . أما المرأة فلا تهتم بهذه الوسائس ولا تميل إلى سفسطة التشكك ، بل تملن الأمر كما هو ؛ فإذا كرهت رجلاً كان قلبها وحده مبرراً لها في كرهها ، وإذا أحبت شخصاً لم تبحث عن الأسباب الباعثة على تعلقها به ، بل تصنى إلى نداء قلبها من غير أن تجد حاجة لتحكيم العقل . إن هذا النوع من النساء شبيه بالنوع الأول في خوفه من التجريد ، وعدم ميله إلى الحق . إن فكرة العدالة مفقودة عند هذين النوعين ، والنساء على الأغلب لا يملن إلى العدالة المجردة ، بل يفضلن عليها عدالة القلب . من ذا الذي يستطيع أن يقنع الوالدة أن ابنها لا يستحق النجاح في الفحص ؟ العدالة ضيقة النطاق ، وقلب المرأة أوسع من أن يتقيد بهذه الحدود الضيقة . قد تكون العواطف للعقل نوراً وللإرادة قوة ، وقد يمت الهوى على التضحية الخالصة فيذهب إلى ما وراء العدالة ويكشف الحجاب عن ذخائر القلب فينشرها ويذيعها ولكنه كثيراً ما يشوش أحكام العقل فيملأها ظلاماً .



رأيت في نومي البارحة رؤيا أفزعتنى : رأيت أنى تزوجت . ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك ، ولكن وجدت نفسى على فرش وثيرة من الدمقس الأزرق فى حجرة جميلة ذات سجف من حرير متألّق متماوج الألوان كرقبة الحمامة . وسمعت حولى من يقول :

— هذا جهازها — جهاز من ؟ — عروسك —
— ومن الذى زوجنى ؟ ومن العروس ؟
— من بيت حسب ونسب . ذات جمال ومال وحلاوة لسان . وهى فرصة كان لا بد من انتهازها . وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج

— ومن انتهز لي هذه الفرصة ؟
— أولاد الحلال ، من قرائك المعجبين الذين يهتمون لأمرك شىء لطيف . وهؤلاء القراء المعجبون الذين زوجونى ، كيف فعلوا ذلك ؟ وأين وجدوا لي هذه العروس .. ؟
— لا شأن لك بكل هذه التفاصيل . ولا تشغل بالك إلا بما أنت فيه من نعم مقيم

— والعروس ؟ أسبق لي رؤيتها ؟ — لا . سترها الليلة — عجيباً ! وكيف يزوجونى ممن لم أرها ونحن فى القرن العشرين ؟ أهـ أيها الناس ! إن هذا جاوز الحدود ...
— هى أيضاً لم ترك — أقرأت كتي ؟
— لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك
— وكيف إذن أقنعوها ؟

— قالوا لها عنك كل شىء إلا الأدب والتأليف . فقد وجدوا من الحكمة وأصالة الراى كتمان ذلك عنها إلى أن يتم العقد ويتمتع النقص

وفتحت عيني فى الصباح وأما أقول : « اللهم أحمك على استيقاظي قبل تمام العقد ، وقبل مواجهة الفتاة بذلك الميب الذى لا يقتصر ! نعم ان المرأة لن تتغير . إن شئون الفكر عندها شىء غيف وكمن من شعراء وأدباء أخفوا على نسايتهم كنوز عقولهم ولم يظهروا لمن إلا كما يردنهم : رجلاً مستدلين كقفة الرجال ! »
توفيق الحكيم

ومما يؤيد هذا أيضاً أن النساء اللواتى اشتهرن بالفلسفة (كهيئاتنا) وغيرها لم يبدعن مذاهب جديدة بل إتبعن المذاهب القديمة وحللنها وهذبنها . فالمرأة أقرب إلى الاتباع منها إلى الإبداع . وهى لا تقبل الحقائق المؤقتة ، بل تريد أن يكون كل شىء نهائياً فتسبح على الحقائق العلمية حلة دينية وتقلب النسب إلى مطلق . إن تلاميذ الفلسفة يفضلون الكليات الفلسفية على الجزئيات ، فيضخمون الفكر البسيطة ويعممونها حتى تشمل الكون كله . أما تلميذات الفلسفة فيملن إلى الجزئيات ويرغبن فى التحليل دون التركيب : فعقل المرأة عقل تحليلي ، أما عقل الرجل فعقل تركيبى . نعم إن المرأة واسعة الخيال ، ومن صفات الخيال الواسع أن ينشئ ويدع ، إلا أن خيال المرأة يصلح لتبديل صور الأشياء وتغيير حقائقها لا لإنتاج الفرضيات المنظمة وإصلاح الواقع بها .

تلك هى أنواع النساء من الوجهة النفسية . فالمرأة الحساسة تصلح للشعر والموسيقى والتصوير والتمثيل ، والمرأة الحساسة الذكية تصلح للحياة العملية من نجارة وإدارة ، والمرأة المفكرة تصلح للعلم والفلسفة . وقد تمتاز هذه الصفات فتجتمع فى امرأة واحدة ، فيكون منها نوع معتدل صالح للقيام بجميع الأعمال . وقد أخذت صفات المرأة تتبدل فى الحياة الاجتماعية الحديثة لأنها قد شاركت الرجل فى جميع الأعمال من تجارة وصناعة وإدارة واقتصاد وسياسة ، فساقها التطور إلى استبدال كثير من صفاتها القديمة بصفات جديدة ، فاستبدلت بالحياء الجراءة ، وبالحشية الاقدام ، وبالسكون الحركة ، وبالسذاجة الحيلة ، وبالعبودية الحرية ، وبالماطنة العقل . وأعتقد أن هذه الصفات الجديدة لا تفسد جمال المرأة بل تزيد سحرها قوة ، لأن العلم لا يجفف القلب بل يبدد ظلمات الغريزة ، وينير طرائق العقل ، ويكشف عن جمال الأشياء ، ويولد فى المرأة صفات نفسية مشابهة لصفات الرجل فى تفكيره وانفعاله وفعله ؛ ويقلب حياة المرأة الانبعاثية إلى حياة مفعمة بالحرية والإبداع . وما أدري لعل التطور يكشف لنا فى المستقبل عن نوع جديد أكل من هذه الأنواع الأربعة تتحد فيه الماطنة بالفكر والإرادة بالعقل . إن الأحلام ليست أقل تأثيراً فى التطور من اشتباك الأسباب الحقيقية واختلافها .

جميل صليبا

رئيس التعميم الثانوى بدمشق